

وقفة: مع سلامة الصدر

هي من أعظم الخلال، وأشرف الخصال، ثم هي من بعد خُلة لا يقوى عليها إلا الأفاضل من الرجال، هي أيها الأخ الحبيب، ويا أيتها الأخت الفاضلة، هي سلامة الصدر، سلامته من كل غلٍ وحسد وبغضاء، وحقد وكره للمسلمين.

ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم أحرص الناس على سلامة قلبه، فكان يقول في صلاته: **اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وحسن عبادتك، وأسألك قلباً سليماً، ولساناً صادقاً، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم—**، أخرجه النسائي عن شداد بن أوس.

وعند أبي داود، كان يقول صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه ابن مسعود: **لا يبلغني أحد من أصحابي عن أحدٍ شيئاً، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر—**.

فيا لله أيها الأحبة، إن سلامة الصدر ونقاءه مفتاح المجتمع المتماسك، الذي لا تهزه العواصف، ولا تؤثر فيه الفتن.

وكيف يا ثرى يكون مجتمع تسوده الدسائس والفتن، وتمتلئ قلوب أفرادها غشاً، وحقداً، وحسداً، وبغضاً، وكرهاً وتنافراً وأمراضاً؟ أفذاك مجتمع أم غابة وحوش وذئاب؟

وأين هو أمل المسلمين عندما يتوجهون إلى الله جل وعلا وتقدس: **{وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا}** [الحشر: ١٠].

أخي الحبيب، أختي العزيزة، قرأت في سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم موقفين عظيمين يستحقان التأمل والتبصر.

الأول منهما: في غزوة الأحزاب، حين أحكم الأعداء قبضتهم،

وأحاطوا بالمدينة، ونقضت قريظة عهدها، ولم يكن يحول بينها وبين المسلمين شيء، وكان الأمر كما قال الله: {إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا} ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا} [الأحزاب: ١٠ - ١١].

في ذلك اليوم العصيب، خرج الرسول صلى الله عليه وسلم، وبطنه معصوباً، وهو منطلق الوجه، فأخذ المعول وقال: بِسْمِ اللَّهِ—، وضرب حجرة في الخندق ضربة، وقال: اللَّهُ أَكْبَرُ، أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأنظر قصورها الحمر الساعة—، ثم ضرب الثانية فقال: اللَّهُ أَكْبَرُ، أعطيت فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الآن—، ثم ضرب الثالثة فقال: اللَّهُ أَكْبَرُ، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر— أبواب صنعاء من مكاني—.

وقد يتساءل متسائل وما علاقة هذا الحديث بوقفنا هذه؟

ولكن استمع أيها القارئ الصبور، استمع للموقف الآخر فهو عندما مرَّ شاس بن قيس، وكان شيخاً قد عتا شديد الحسد للمسلمين، على نفرٍ من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم، فغاضه ما رأى من ألفتهم، فأمر فتىً يهودياً أن يجلس معهم، ثم يذكرهم بيوم بُعث وما تناولوا فيه من الأشعار ففعل، فتفاخر القوم حتى تواتب رجالان فاختصما، وتعصب كلُّ لقومه، حتى تواعدوا أن يقتتلوا عند الحرة، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج غاضباً، يُعرف الغضب في وجهه حتى جاءهم فقال: اللَّهُ أَكْبَرُ يا معشر— المسلمين، أبدو عوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم أعناق بعض، فبكى القوم واصطلحوا—، رواه مسلم.

وبعد هاذين الموقفين يا مسلم، أليس عجباً أن يخرج الرسول

صلى الله عليه وسلم راضياً مُتَبَسِّمًا في الموقف الأول يوم الخندق، رغم شدة الموقف وصعوبته، ويغضب في الموقف الثاني كل هذا الغضب لمجرد توائب حيين من المسلمين، بل يصف ذلك بأنه كفر، وأنه من دعاوى الجاهلية؟

إنه الوحي الإلهي، إنه الدرس النبوي البليغ، إذا كانت القلوب سليمة، والصف واحداً، فليعصف الباطل، وليجلب الكفر بخيله ورجله فإن البناء متين.

أما إذا اختلفت القلوب وذهب صفاؤها، وتمزقت الألفة، وملئت القلوب بالغل، فهذا نذير الشر، وأول البلاء، ويجب حينئذ الوقوف بحزم أمام هذا الداء، وأن نقول بلسان عربي مبين: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

سلامة الصدر رحمكم الله، نعمة ربانية، ومنحة إلهية، وفوز عظيم، وجنة عرضها السماوات والأرض، فيا رب يا رب: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحشر: ١٠].

سلامة الصدر، من أسباب النصر على العدو، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدِكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦٣) ﴿وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣].

فانتلاف قلوب المؤمنين من أسباب النصر التي أيد الله بها رسوله، كما قال الإمام القرطبي رحمه الله في كتابه الجامع.

نعم أيها الفضلاء، سلامة الصدر سببٌ في قبول الأعمال، ففي الحديث الصحيح عن المعصوم صلى الله عليه وسلم: ٥ تعرض الأعمال كل يوم اثنين وخميس، فيغفر الله عز وجل في ذلك اليوم لكل امرئ لا يشرك بالله شيئاً إلا امرءاً كانت بينه وبين أخيه شحناء فيقول: أنظروا هذين حتى يصطلحا—.

فانظر أيها المسلم، كم يضيّع على نفسه من الخير من يحمل في قلبه الأحقاد والضغائن، والله المستعان.

سلامة الصدر، علامة فضل وتشريف، روى ابن ماجة عن عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما قال: قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الناس أفضل؟ قال: كل مخموم القلب صدوق اللسان—، قالوا: صدوق اللسان نعرفه فما مخموم القلب؟ فقال صلى الله عليه وسلم: هو التقي النقي، لا إثم فيه ولا بغي، ولا غل ولا حسد—.

بل إن سلامة الصدر صفة من صفات أهل الجنة، إذ أتى عليهم ربهم بقوله: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ} [الأعراف: ٤٣].

وفي الحديث في وصف أول زمرة تلج الجنة كما أخبر بذلك محمد صلى الله عليه وسلم إذ قال: لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب رجل واحد—.

فيا أخي الفاضل، سلامة الصدر طريق إلى الجنة، قال عليه الصلاة والسلام: يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة—، فطلع رجل من الأنصار تنظف لحيته من الوضوء، تكرر ذلك ثلاث مرات في ثلاثة أيام، فأحب عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن يعرف خبيئة هذا الرجل، فبات عنده ثلاثاً فلم يره كثير صلاة ولا صيام، فسأله فقال: (ما هو إلا ما رأيت غير أنني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه)، فقال عبد الله: هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نطبق.

الله أكبر، أفرأيت كيف سمت به سلامة صدره حتى بُشّر بالجنة ثلاث مرات، وانظر رعاك الله إلى عظم الأمر، فإذا كان مثل ابن عمرو، وهو من هو، كان جلدأ في العبادة يقول: وهي التي لا نطبق،

فماذا يقول من دونه، وماذا أقول أنا وأنت؟

إذ ما كانت هذه الكلمة من ابن عمرو تشيطاً عن هذا الخلق العظيم، وإنما كانت بياناً لعظم منزلته، وحاجته إلى المجاهدة العظيمة.

نعم فالنفوس الكبيرة وحدها هي القادرة على سلامة صدورها، وسعة نَفْسِهَا.

فيا من رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً، حذار حذار أن يمتلئ منك القلب بالدسائس، بالضغائن، بالأحقاد والفتن، بالغل والغش، بالحقد والحسد، اجعل شعارك قول ربك: {وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا} [الحشر: ١٠].

قال ابن كثير رحمه الله: (عبر بالغل وهي جامعة لأمراض القلوب كلها، فيدخل فيها كل خلق ذميم).

أحبتني في الله، النفوس الزكية هي القادرة على تجاوز الإساءة ومقابلتها بالإحسان، ومن ثم المحافظة على القلب نقياً، والصدر سليماً، ودائماً: {ادْفَعْ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} [فصلت: ٣٤].

ضُرب الإمام أحمد بن حنبلٍ رحمه الله في زمن المعتصم ضرباً شديداً، فلما كان زمن المتوكل أحس الإمام بأذى في ظهره، فإذا هي لحمة فاسدة التأم عليها الجرح، ولم يكن بد من شق الظهر وإخراجها، قالوا: فلما أحس الإمام بألم الموضع وحر الشق قال: (اللهم اغفر للمعتصم).

فيا سبحان الله، يستغفر لمن كان سبباً في ألمه، ويا سبحان الله بدل أن يدعو عليه يدعو له، وصدق الله العظيم، {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ

بَعْدَهُمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ {الحشر: ١٠}.

إنه منطلق عظيم لا تعرفه القلوب الضيقة، ولا الصدور المريضة، ولا النفوس الصغيرة، ولا ضعاف الإيمان.

وليس ما ذكر خاصاً بالإمام أحمد، فمن قبله كان يوسف عليه السلام مثلاً فذاً في سلامة الصدر، فبعد أن فعل به إخوته ما فعلوا، وبعد أن صار في منزلة يقدر فيها على الانتقام، أي أن يثأر لنفسه، طبق العفو عند المقدرة، وقى لإخوته الكيل ثم قال لهم: {لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَعْفُرُ اللَّهُ لَكُمْ} {يوسف: ٩٢}.

لا إله إلا الله، عفا عنهم ثم استغفر لهم، وأعجب من هذا أنه التمس لهم العذر فيما فعلوه حين قال كما في القرآن: {مِنْ بَعْدِ أَنْ تَرْغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي} {يوسف: ١٠٠}.

ومن قبل ذلك قال هابيل لأخيه وقد هم بقتله وتوعده: {لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾} {المائدة: ٢٨}.

والأعظم من ذلك أن محمداً صلى الله عليه وسلم في الطائف يُرمى بالحجارة والعصي، حتى تدمي قدمه، ويقال له لو دعوت الله عليهم لانتصر لك فيقول: ١ اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون.—

محمد صلى الله عليه وسلم يخرج أهله من مكة من مكة، بعد أن ألصقوا به التهم والأكاذيب، بعد أن وصفوه بالشاعر والساحر، فيأتيهم فاتحاً منتصراً، لو أراد تمزيق لحومهم لفعّل، لو أراد إسالة دمهم لاستطاع، يقول بسعة صبر، وسلامة صدر: ١ اذهبوا فأنتم الطلقاء.—

قلوب اتسعت، وصدور سلمت، طهر الله قلوبهم، ووسع صدورهم، ونزع منها الغل والأحقاد والضغائن، فيا لله كيف هم، ويا أسفاه على صدورنا، وصدق القائل: ولكن صدور الرجال تضيق.

أيها القارئ الكريم، بسلامة صدرك تأمل القصة التالية، فقد حضرت الوفاة أبا دجانة الأنصاري رضي الله عنه وكان وجهه يتهلل، فقيل له ما سبب ذلك؟ فقال: (ما من عمل شيء أوثق عندي من اثنتين: كنت لا أتكلم فيما لا يعنيني، والأخرى فكان قلبي للمسلمين سليماً).

وقف علي بن أبي طالب رضي الله عنه على طلحة بن عبيد الله، وقد كان بينهما في موقعة الجمل ما كان، فجعل يمسح عن وجهه التراب ويقول: يعز علي يا أبا محمد أن أراك مجندلاً تحت نجوم السماء، ودخل عليه عمران بن طلحة فقال له علي: إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك من الذين قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

فوا عجباً أخي الكريم، وأختي الفاضلة، إنها قلوب تسامت عن ذاتها، وتعالق عن الغضب لنفسها، فأين من هؤلاء من يحمل على أخيه لمجرد أنه نسي دعوته إلى وليمة؟

وأين من هؤلاء من يحمل على أخيه لكلمة خرجت من غير قصد فيحملها على الشر وهو يجد لها في الخير محملاً؟

بل أين من هؤلاء من يجعل ذهنه حاسوباً يسجل فيه الأول والتالي، كل صغيرة وكبيرة من هفوات إخوانه، حتى إذا غضب على أحدهم أخرج له قائمة طويلة فيها الحوادث والأرقام والتواريخ، أنت فعلت وفعلت وفعلت.

أين من هؤلاء من لا يكاد يصفو قلبه لأحدٍ أبداً، فهو يحسد هذا،

ويحقد على ذاك، ويغضب على الثالث، ويسيء الظن بالرابع، ويتهم الخامس، وقد غش السادس، واحتقر سابع الناس، واسود قلبه على الثامن، وظل مخلصاً للتاسع، وما عاشر المسلمين منه بسالم، فالله المستعان، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

قال صديق لابن السماك، موعدنا غداً نتعائب، فقال له ابن السماك: بل موعدنا غداً نتغافر الهفوات فتغفر الذنوب والزلات، وهو جواب يأخذ بمجامع القلوب، فلماذا التعائب المكفهر بين الإخوة كل منهم يطلب من صاحبه أن يكون معصوماً؟

أليس التغافر وسلامة الصدر أولى وأطهر، وأبرد للقلب؟ أليس جمال الحياة أن تقول لأخيك كلما صافحته: رب اغفر لي ولأخي، ثم تضمّر في قلبك أنك قد غفرت له تقصيره تجاهك؟ بلى والله بلى.

فهكذا هم المسلمون، وهكذا هو المجتمع المسلم، صفاء وود، إخاء وحب، قلب سليم، ونفس صافية، وصدر يحتمل الزلات، ويغفر الخطايا، ويمحو بالإحسان الإساءة، ومنطق كمنطق الشاعر الذي يقول:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد :: جاءت محاسنه بألف شفيع

* * *